**المحاضرة الثالثة**

**النقد الانطباعي مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه**

**تمهيد:**

يقوم النقد –بما أنه فن دراسة العمل الأدبي-، بتحليل الأثر الأدبي وتفسيره وتقدير قيمته الفنية. وقد مارسه العرب منذ العصر الجاهلي، ولكنه لم يتكئ على قوانين وأسس علمية واضحة متفق عليها، وهذا ما سمح بوصفه بالانطباعية الخالصة، لصدور أحكامه عن الفطرة والإحساس، وتميزها بالجزئية.

**أولا: مفهوم النقد الانطباعي:**

هو نقد لم يصدر عن تفكير عميق، ولا عن تأمل ودراسة معمقة، يخضع للمزاج الخاص الفردي، لذلك يكون أحكاما جزئية عامة سريعة غير معللة، يصف فيها الناقد النص ولا يبين الأسباب التي دفعته إلى ذلك.

ولأنه مبني على الانفعال والتأثر والنظرة العجلى، ولم يبن على قواعد وأسس علمية صحيحة متفق عليها، فإنه يتميز بالسذاجة والبساطة والمبالغة في إصدار الأحكام.

وبالنظر إلى ذلك، يمكن الجزم بأن كثيرا من الآراء النقدية التي شكلت اللبنات الأولى للنقد الأدبي العربي في عصوره الأولى، تندرج ضمن هذا النوع من النقد، انطلاقا مما اتصفت به من بساطة في التعليل وانقياد واضح للإحساس والانطباع، واقتصاره على عبارات معينة، كأن يقول الناقد: هذا أشعر بيت، هذه أجمل قصيدة، هذا أشعر الجن والإنس...

**ثانيا: نماذج وصور منه:**

\*صور النقد الانطباعي كثيرة وخاصة في العصر الجاهلي كما نقلت مصادر الأدب والنقد. فالناقد في هذا العصر كان ينطلق من ذاته وإحساسه في نظره للشعر. تقوده السليقة والطبع فيما يصدره من أحكام. ومن نماذجه المختارة:

**أ/ في العصر الجاهلي:**

\*جاء في رواية عن المرزباني: ''مر المسيب بن علس بمجلس قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم، فلما بلغ قوله:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهَمّ عِنْد إذكاره \*\*\* بِناجٍ عليه الصّيْعرية مُكدَمِ

فقال طرفه وهو صبي يلعب مع الصبيان: استنوق الجمل، وهو يريد أن الشاعر وهو يصف الجمل، ذكر من أوصافه ما يخص الناقة (الصيعرية)، وهي سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق الجمل. وقد استعملها المسيب استعمالا خاطئا.

\*ومن ذلك ما يروي أن: النابغة الذبياني كان تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه، الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فكان أول من أنشده الأعشى: ميمون بن قيس، أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري:

لَنَا الجفنات الغرّ يَلْمَعْنَ بالضّحَى\*\*\*وَأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَما

وَلَدْنا بَنِي العَنْقاء وابني مُحـرّق\*\*\*فأكْرِم بنا خالا وأَكرِم بنا ابنما

فقال له النابغة: ''أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك''.

\*وروي أن الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر، أيهم أشعر؟. فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر، يتلألأ فيها البصر فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل، فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر''.

(حبر: مفردها حبرة وهي ملاءة من الحرير كانت ترتديها النساء في مصر عند خروجهن. خرزها: الخرز، الخياطة، والمزادة وعاء يحمل فيه الماء في السفر).

\*روي أن امرئ القيس وعلقمة احتكما لزوجة امرئ القيس أم جندب للفصل بينهما أيهما أشعر على أن ينظما شعرا على روي واحد وقافية واحدة، فقال امرؤ القيس:

فللسوط الهوب، وللساق درة\*\*\*وللزجر منه وقع أخرج مهذب

(ألهوب: اجتهاد من الفرس في عدوه. درة: إذا غمر الفرس بالساق أسرع. الأخرج: ذكر النعام. مهذب: المسرع في حربه).

وقال علقمة:

فأدركهن ثانية من عنانه\*\*\*يمر كمر الرائح المتحلب

(الرائح: السحاب. المتحلب: الساقط المتتباع. أو هو السائل كأنه لسرعته لا يجري ولا يتحرك).

وبعد الانتهاء حكمت أم جندب لعلقمة محتجة بأن زوجها أجهد فرسه بسوطه وأتعبه بساقه على عكس علقمة.

فهذه الأحكام النقدية جميعها عامة وليدة ذوق فطري متعجل، كما هو الشأن في أغلب نماذج العصر الجاهلي، إذ تجمع بين الجزئية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي، دون اللجوء إلى التعليل.

**ب/ العصر الإسلامي:**

ولقد استمر هذا النوع من النقد في العصر الإسلامي، مع تبدل في وجهة النظر للشعر وفي الموقف منه، إذ أصبحت الأحكام النقدية تعتمد الصدق والقيم الخلقية، وتستمد معاييرها من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وقد جمعت المصادر عددا من الروايات والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم توضح مدى حرصه على أن يتخذ الشعراء من القرآن الكريم منهجهم، ومنها أن النابغة أنشده قائلا:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى\*\*\*ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا\*\*\*وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له رسول الله: ''إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة يا رسول الله. فقال: إن شاء اله.''

وأنشده حسان بن ثابت بعد أن هجاه أبا سفيان:

هجوت محمدا فأجبت عنه\*\*\*وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''جزاؤك عند الله الجنة يا حسان''.

وأثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يستحسن قول طرفة بن العبد:

سَتُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلا\*\*\*ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّدِ

ومن صور النقد الانطباعي في هذا العصر:

* وروي عن عمر بن الخطاب أنه سأل ابن عباس رضي الله عنه: ''أنشدني لأشعر شعرائكم قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولم كان كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام، و لا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه''. (المعاظلة في الكلام أن يتداخل بعضه في بعض حتى يثقل فلا يفهم).

وروي أن عثمان بن عفان قال عن بيت زهير بن أبي سلمى:

وما تكن عند امرئ من خليقة\*\*\*وإن خالها تخفى على الناس تعلم

''أحسن زهير وصدق، فلو أن رجلا دخل بيتا في جوف البيت لتحدث به الناس''.

**ج/ العصر الأموي:**

على الرغم من التقدم الذي حققه هذا العصر من حيث توسع العرب في الأقطار، وامتزاجهم بباقي الأمم، وانتشار الحواضر، وازدهار الشعر في الحجاز والشام والعراق، فإن النقد بقي على هيئته من حيث الانطباعية وتمثل الإحساس. وقد برز في هذا العصر نقاد في تلك البيئات الثلاثة، كابن أبي عتيق وسكينة بنت الحسين في الحجاز، وبعض اللغويين والرواة في العراق، وبعض الشعراء والخلفاء في الشام.

**ج-1/ في الحجاز:**

كان الحجاز مركزا لظاهرتين متناقضتين، فهو مركز ديني وموطن التشريع الإسلامي ومصدره، وفي الوقت نفسه موطن اللهو، لوجود أشهر المغنين والظرفاء، وشعراء الغزل بلونيه العفيف والماجن.

وفي هذه البيئة نشأ أدب رقيق فيه روح العصر والمكان.

ومن صور النقد الانطباعي فيه:

* أن ابن أبي عتيق قال عن شعر عمر بن أبي ربيعة: ''لشعر عمر ابن أبي ربيعة نوطة بالقلب، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة، ليست لشعر غيره. وما عصى الله جل ذكره بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة. فخذ عني أشعر الناس من دق معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، وتعطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته''.

**ج-2/ في العراق:**

ظل الشعر في هذه البيئة قريبا من الشعر الجاهلي في صوره وأساليبه بتأثير من اللغويين أمثال أبو عمرو بن العلاء، والحضرمي، وعنبسة الفيل، وحماد الراوية، وخلف الأحمر، والأصمعي، والمفضل الضبي، وأبو عبيدة. وسيطر عليه الخصومة بين الشعراء في شكل أغراض الفخر والنقائض والمدح.

ومن صوره:

روي أن أبا عبد الله الحضرمي قال على بيت للفرزدق، وكان شديد التعقب لشعره،:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع\*\*\*من الناس إلا مسحتا أو مجلف

بأنه عطف المرفوع على المنصوب في (مسحتا) و(مجلف).

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول على شعر ذي الرمة: ''إنما شعره نقط عروس: يضمحل عن قليل، وأبعار ظباء لها مشم في أول شمها، ثم تعود إلى أرواح البعر''.

فشعر ذي الرمة –حسبه- جيد في أول إنشاده، فإن أعدت ذلك ضعف وذهب رونقه تماما كما تختفي نقط العروس بعد الغسل ورائحة بعر الظباء بعد مدة من شمها.

(نقط العروس: ما تنقط به المرأة خدها من السواد للتزيين. مشم: رائحة طيبة تشم لما تأكله الظباء من نبات طيب الرائحة كالشيخ والقيصوم، فإذا جف صار كسائر البعر).

* روى ابن سلام أن عكرمة بن جرير سأل أباه عن الشعراء، فقال: ''الأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر''. وحكم الأخطل على جرير بأنه كان ''يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر''.

**ج-3/ في الشام:**

صارت الشام في حكم الأمويين مركزا سياسيا وعاصمة للحكم ومركزه، وهذا جعل نشاط الشعر يتمركز فيها حول مجالس الخلفاء، ويغلب على النقد فيها آراءهم ومواقفهم من الشعر والشعراء، كما لم يخف النقد في هذه البيئة عموما انتصاره للموروث العربي.

وأشهر الأمويين دراية بالشعر، وقربا من الشعراء عبد الملك بن مروان لكثرة بقائه في الحكم من جهة، ولتذوقه الشعر من جهة أخرى، وله في كتب تاريخ النقد ومصادره روايات كثيرة وأخبار ومواقف من أقوال الشعراء سنختار منها نماذج لكثرتها:

يروى أن عبد الملك بن مروان اعترض على قول الشاعر فيه:

على ابن أبي العاص دلاس حصينة\*\*\*أجاد السدي سردها وأذالها

يؤود ضعيف القوم حمل قتيرها\*\*\*ويستضلع القوم الأشم احتمالها

مفضلا عليه قول الأعشى لقيس بن معد يكرب:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة\*\*\*شهباء يخشى الزائدون نهالها

كنت المقدم غير لابس جنة\*\*\*بالسيف تضرب معلما أبطانها

وسبب الرفض ميل الخليفة للمبالغة رغم معرفته بأن قول الشاعر فيه مناسب للوضع الحربي جدا.

(دلاص: دروع لينة براقة ملساء. السدي: صانع السداء وناسج الثوب. سردها: نسجها. أذالها: أطال ذيلها. يؤود: يثقل ويصعب. قتيرها: مسامير الدرع أو الدرع نفسها. القرم: السيد العظيم. الأشم: المرتفع.

شهباء: صافية الحديد. نهال: الرماح المتعطشة للدماء. الجنة: الدرع الواقية. معلما: متحديا أعداءه بأن يعلمهم مكانه في الحرب).

وروي عنه أنه وقف موقفا سلبيا من قول احد الشعراء:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت\*\*\*فواحزني من يهيم بها بعدي

وعدله بقوله هو:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت\*\*\*فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

وعليه ظل النقد العربي وحتى العصر الأموي يستلهم الذوق والشعور، وبقي على حاله جزئيا بسيطا فطريا، لا يرجع الناقد فيه إلى مقاييس دقيقة بل إلى ذوقه الأدبي المرهف.

**المصادر والمراجع:**

1- قصي الحسين: النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان ط1، 2003.

2- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، القاهرة، مصر، 1419ه، 1998م.

3- عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط3، 1986.

4 - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، عمان، ط 1، 1993.

5- ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، منشورات محمد علي بيوض، الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1222ه، 2010م.
6 - الشعر والشعراء: ابن قتيبة، دار الآثار للنشر، ط 1، 2010.
7 - ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، ط1، 2005.